

المنهج الجدلي في علم الاجتماع

بقلم أحمد القصر

- ١ -

النظرية الاجتماعية عند ماركس

١ - مدخل :

في مجال نوعي محدد مثل علم الاجتماع . كما أن استيعاب هذه النظرية جيدا يقتضي معرفة ما وصلت اليه العلوم الاجتماعية قبل ماركس ، وما هي حلقة الصلة بين ماركس وانجلز وما قدمه العلماء والمفكرون في عصرهما .

لقد اخذت المناهج المستخدمة في دراسة الظواهر الاجتماعية تتقدم وتتطور في اتجاه النخلص من الاساليب غير العلمية والآراء المسبقة . ويجمع معظم علماء الاجتماع حول اوجه القصور التي لازمت تلك المناهج عندما اخذت تسير نحو النضج في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، كما انهم الآن . . يتفقون حول بعض الادوات التي تستخدم في الدراسة والبحث . بيد اننا لا نستطيع ان نقول ان القضايا المنهجية الاساسية في علم الاجتماع قد اصبحت تلاميذ اتفاق علماء الاجتماع . فلا تزال المؤلفات الجامعية في بلادنا - على سبيل المثال - تتخذ موقفا يتسم بالنعصب من المنهج الماركسي في علم الاجتماع بل وتعرضه بشكل غير موضوعي . ونستطيع ان نقول انها تنظر لهذا المنهج نظرة ذات جانب واحد . كما نلاحظ ان هناك مؤلفات (٢) في علم الاجتماع في بلادنا تتجنب حتى الاشارة الى ماركس ومنهجه ، وكان تاريخ العلم يتوقف على اهواء البعض .

ان البحث العلمي يتطلب ان نعرض قواعد المنهج الماركسي ونستوعبه وفقا للصياغات التي وضعها مؤسسوه ، وبالكيفية التي استخدموها في أبحاثهم ودراساتهم وعلينا ان نبتعد عن التصورات الذاتية التي تضعها حوله بعض المؤلفات في بلادنا أو في الخارج .

ان معظم هذه التصورات الذاتية تسير في ثلاثة اتجاهات رئيسية: الاول : يحاول ان يصف المنهج الماركسي بأنه يخضع لاعتبارات تعسفية وينصف بالقدرة ، وأن قواعده عبارة عن مبادئ متعسبة تخضع لعقيدة تفسر التطور لافكار مسبقة . وهم بهذا ينكرون ان . . الماركسية تقدم منهجا للبحث في مجال العلوم الاجتماعية . ذلك هو الاتجاه الاول .

أما منطق اصحابه فاننا نجده على النحو التالي :

« والمنطق الجدلي الذي تسعين به الماركسية منطق مذهبي يحكم عليها اطار العقيدة المترتمه ، وهو ليس منطقا منهجيا موضوعيا يتخذ نقطة البداية من الظواهر ويعين على استخلاص خصائصها بالدراسة

اذا كانت افكار ماركس ونظرياته الاجتماعية قد ساهمت وبشكل فعال في تطوير العلوم الاجتماعية وارساء دعائمها ، فان هذه النظريات ظلت لفترة من الزمن في عزلة عن الشكل الذي تطورت به هذه العلوم في معظم جامعات العالم ، كما ان الجامعات المصرية تفاقمت عن جوانب معينة وهامة من تراث الفكر الاجتماعي . ولهذا ظلت النظرية الاجتماعية عند ماركس غامضة مبهمه . فالروابط الثقافية بين جامعاتنا والجامعات الاجنبية في مجال العلوم الانسانية قد سارت حتى الان في اتجاه واحد - اتجاه الغرب . ومن هنا لم تتح فرصة التعرف على النظرية الاجتماعية عند ماركس الا وهي متأثرة بشكل ما بالاتجاهات الغربية . ومن الغريب ان بعض الاتجاهات التي تعترف في الغرب بمدى تأثير ماركس على علم الاجتماع لا تجد في مصر الصدى الذي يعبر عنها كما يجب . وعلى سبيل المثال نجد بوتيمور يقول : « ولعل ما يبرر اتجاه ماركس الانتقادي نحو موضوع علم الاجتماع كما فهمه أوجست كونت ان علم المجتمع عند ماركس يرتبط باهتمامات علم الاجتماع الحالي اكثر من ارتباطه بتلك النظرية التي اطلقت عليه هذا الاسم ، اي نظرية كونت وهذا ما يؤكد رايتم ميلز عندما يقول : اذا كان علماء الاجتماع يدرسون تفاصيل وحدات اجتماعية فان ماركس يدرس نفس هذه التفاصيل ولكن على مستوى بناء المجتمع في مجموعه ، واذا كان علماء الاجتماع الذين لا يعرفون من التاريخ الا القليل يدرسون الاتجاهات قصيرة المدى ، فان ماركس يتناول الحقبة بأكملها باعتبارها وحدة الدراسة مستخدما في ذلك المواد التاريخية بقدره خلافة » . (١)

ولا تكمن المصاعب أمام الباحث في الموقف الذي تتخذه جامعاتنا من فكر ماركس فقط . فهناك سبب يرجع الى طبيعته الماركسية ذاتها . فالنظرية الماركسية متعددة الجوانب ويصعب فهم أي جزء منها اذا اخذ على حدة .

ويزداد الامر صعوبة اذا اراد الباحث ان يتعرف على فكر ماركس

- (١) Bottomore and Maximilien (eds) ,
KARL MARX, Selected Writings in, Sociology and
Social Philosophy (Rubel, Belican Book, 1963), P. 45.

(٢) مثال ذلك : حسن شحاته سفيان ، اسس علم الاجتماع ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

الموضوعية المستندة الى الاحصاء الدقيق والمقارنة السليمة . هنا نرى الماركسية تبغي بكل وسيلة ان تضع الظواهر جميعها في اطار جدلها المحكم وتفرض علينا الحقيقة التي تزعم انها تصل اليها « (١) » أما الاتجاه الثاني فيتمثل في محاولة التوفيق بين المادية التاريخية وبعض الاتجاهات المدرسية في علم الاجتماع .

ويقول بعض اصحاب هذا الاتجاه ان المادية التاريخية ليست جزءا متكاملًا من النظرية الماركسية . بل قد يقولون بان المفهوم المادي للتاريخ عبارة عن اساليب مجردة لتسجيل وقياس الظواهر الاجتماعية في استقلال عن الابدولوجية والنفوذ الطبقي (٢) . ويقدم اصحاب هذا الاتجاه آراءهم كما يلي :

(١) « نستطيع ان ندافع عن ماركس من ناحية اخرى نسمى فهمه فيها . فلقد اطلق كثيرا على تفسيره الاقتصادي للتاريخ اسم «التفسير المادي للتاريخ» ولقد اطلق ماركس نفسه هذا الاسم عليه احيانا ... ولكنني لا ارى اي معنى فيها . فلم تكن فلسفة ماركس اكثر مادية من فلسفة هيغل . ولم تكن نظريته عن التاريخ اكثر مادية من اي محاولة اخرى للبحث في العملية التاريخية بالوسائل التي يوفرها العلم الاختياري والتجريبي .. » (٣)

(ب) « يسمى منهج ماركس عادة بالمادية التاريخية، وهذا فيه خداع الى الحد الذي ينسب لماركس مقصدا فلسفيا لم يكن لديه . فان ماركس لم يكن مهتما لا بالمشكلة التكنولوجية للعلاقة بين الفكر والوجود ولا بقضايا نظرية المعرفة . فان فلسفة تأملية من هذا النوع كانت هي التي رفضها ماركس ليضع العلم مكان الميتافيزيقا في مجال جديد للمعرفة » (٤)

أما الاتجاه الثالث لتلك التصورات الخاطئة عن المنهج الماركسي فينتضح في محاولة للقول بانه « حتمية اقتصادية » (٥) او يفسر التطور وفقا لعامل واحد .

وعلينا ان نرى الان ما اذا كانت هذه التصورات تتفق مع مبادئ المنهج الماركسي ام لا . وفي هذا الصدد يمكن ان نضع الاعتبارات التالية :

(١) يحاول بعضها ان يفتل اي قيمة منهجية لاعمال ماركس في مجال العلوم الاجتماعية . أما البعض الاخر (بوتومور مثلا) فيقرر ان ماركس افاد العلم برفضه الفلسفة التأملية . ولكنه بينما يقول ذلك نجد ان الجزء الاول من الفقرة لا يعبر عن فهم سليم للمادية التاريخية . فقضية العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي كانت من القضايا التي حدد حولها ماركس رأيا حاسما .

(٢) نجد ان هذه التصورات لا تتمسك بالمصطلحات التي صاغها ماركس وانجزت عن منهجها . فقد حرصا على توضيح ما تعنيه تلك

(١) محمد فتحي الشنيطي ، الفلسفة الماركسية (اصولها وتطبيقاتها الاجتماعية) دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

(2) Glezerman, The laws of Social Development, Foreign Publishing House, Moscow, P. 12.

(٣) جوزيف شومبير ، الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية (الجزء الاول) تعريب خيرى حماد ، الدار القومية للطباعة والنشر ،

ص ٢٥

(4) Bottomore, and Maxmélien (eds) KARL MARX, Selected Writings in Sociology and Social Philosophy, Rubel, Pelican Book, 1963, P. 36 OP, Cit, P. 36.

(5) Maciver and Page, Society, Macmillan and CO-LTD, London 1950. P. 563.

الاصطلاحات وابعاد اي شبهة خلط بينها وبين اي مصطلحات اخرى . وعلى سبيل المثال نجد ان انجزت يتعرض لهذا الموضوع بالتفصيل في مؤلفاته : « لود فيج فيوريانج ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » ، و « الرد على دوهرنج » . كما ان ماركس مثلا لم يطلق على نفسه مطلقا انه مادي اقتصادي .

٣ - انهم لا يلاحظون - في حالة توفر حسن النية - ان ماركس الاقتصادي البارز والفيلسوف والمؤرخ وصاحب النظريات السياسية الاجتماعية ، لا يمكن لاي جانب من اعماله ، اذا اخذ على حدة - او حتى اذا اخذت جميع اعماله ببساطة في مجموعها - فانه لا يوضح اصالة فكره واعماله . ولان السمة الرئيسية والجوهرية لفكره هي علم الاجتماع : اي تكامل المظاهر الجزئية للواقع الاجتماعي في اطار كلية تجد تفسيرها في البحث القائم على التحديد التاريخي والتحليل الهيكلية . فان الجدل عنده لم يكن سوى وسيلة الى علم اجتماع يرفض العقائدية ، ويبدو ذلك على وجه الخصوص في ازالته للتعارض الزائف بين الفرد والمجتمع « (٦) »

(٤) ان بعض من يضعون تصورات ذاتية عن الماركسية بانكارهم انها لا تقدم منهجا للبحث لا يدركون « ان المادية في التاريخ هي الاخرى لم تدع انها تفسر كل شيء ، وانما تشير فقط الى المنهج العلمي الوحيد في تفسير التاريخ حسب تغيير ماركس في رأس المال » . (٧) كما يشير لينين ايضا الى محاولة ميخالوفسكي عالم الاجتماع الروسي ان يكون لبقا « حينما يشوه ماركس بان ينسب الى المادية في التاريخ مزاعم سخيفة : « تفسر كل شيء » و « تجد حولا لكل القضايا التاريخية » . وهي مزاعم دحضها ماركس على الفور وبأسلوب لاذع في خطاب له حول مقالات ميخالوفسكي (٨) التي نسب فيها هذه المزاعم الى ماركس . وقد ارسل ماركس هذا الخطاب الى هيئة تحرير جريدة « مفكرات هامة » في روسيا في نهاية ١٨٧٧ .

(٥) تفضل بعض الانتقادات التي توجه الى المنهج الماركسي الاختلافات بين هيغل والماركسية بل قد تلتفها .. فهي تزعم ان التفسيرات التي يقدمها ماركس تقوم على الجدل الهيكلية ، واذا كان هذا الزعم لا يتضح صراحة في الفقرة التي نقلناها آنفا عن شومبيتر ، فانه لن يعوزنا البحث عن هذه الصراحة في بعض المؤلفات عن علم الاجتماع :

« مما يؤخذ على آراء ماركس انها قامت على طريقة هيغل الجدلية لان هذه الطريقة صحيحة من ناحية المنطق وما وراء الطبيعة ولكن تطبيقها العملي لا يخلو من الاعتداء على الحقائق والاساءة الى التاريخ ، وعندما نعرض حوادث التاريخ نرى انها لا تطابق تماما المطابقة الاسلوب الجدلي الذي يقول به هيغل . كما ان اخضاع التغير لعامل واحد يقضي بتجاهل الكثير من العوامل » (٩)

ان اول ما نلاحظه في هذه الفقرة ان اصحابها يتحدثون عن ماركس وينتقدونه ويستخدمون حجة ان سير التاريخ لا يطابق « الاسلوب الجدلي الذي يقول به هيغل » فكيف نأخذ ماركس بجريرة هيغل . اليس الاسلوب الجدلي عند ماركس يختلف عن الجدل عند هيغل كلية ، كما ان استخدامه يختلف هو الاخر ؟ ربما ان اصحاب هذا الرأي قد تأثروا بالزعم القائل ان ماركس

(6) Gurvich, Traité re Sociologie, Presses Unversitaires de France, Paris, 1962, P. 37.

(7) Lenin, Collected works, V. I, Moscow, 1963, P. 146. P. 146.

(8) Ibid. P. 165.

(٩) عبد الباسط محمد حسن وآخرون ، اصول علم الاجتماع ، مطبعة لجنة البيان العربي ص ٢٢١ .

يفسر كل شيء باستخدام المقولة الثلاثية الهيجلية الشهيرة Hegelian triads والتي مؤداها ان كل موضوع Theses يحتوي على نقيضه . Anti- theses وان الصراع بينهما يؤدي الى ظهور مركب الموضوع . . . Syntheses ، ووفقا لراي انجلز ولينين، فان هذا الزعم هو تشويه وتحريف لمنهج ماركس . فقد شرح انجلز في « الرد على دوهرنج » كيف ان ماركس لم يحلم مطلقا بان « يبرهن » أي شيء باستخدام الثلاثية الهيجلية ، ولم يفعل ماركس شيئا سوى ان توسع وبحث العمليات الواقعية ، وان المعيار الوحيد لنظريته هو مدى تطابقها مع الواقع (1) ثم يتعرض انجلز للدور الذي يلعبه في النفي عند ماركس فيقول ان ماركس وضع استنتاجاته النهائية التي استخلصها من البحث التاريخي والاقتصادي حول التراكم الاولي لرأس المال ، وبعد ذلك قام ماركس بايضاح ان الاسلوب الرأسمالي للنتاج يخلق الظروف المادية التي ستمحوه وان هذه عملية تاريخية . واذا كانت تنفق في نفس الوقت مع الديالكتيك فان ذلك ليس خطأ ماركس . فان ماركس بعد ان برهن افتراضاته استنادا الى التاريخ - وبعد ذلك فقط - اضاف ان ذلك يحدث وفقا لقانون جدلي معين .

كما ان لينين يهاجم علماء الاجتماع الذين يزعمون ان « اساس النظريات السوسولوجية عند الماديين (الماركسيين) يقوم على الثلاثية الهيجلية . . . فعندما يقرأ ميخالوفسكي الكتابات الماركسية يصادف باستمرار اشارات الى المنهج الجدلي في العلم الاجتماعي والى التفكير الجدلي في مجال القضايا الاجتماعية ، وما الى ذلك . وبسبب بساطة قلبه - وسيكون حسنا لو كان الامر مجرد بساطة - يفترض جدلا ان هذا المنهج يعني حل القضايا السوسولوجية وفقا لقوانين الثلاثية الهيجلية . . . ان كل من يقرأ تعريف وشرح المنهج الجدلي ، الذي قدمه انجلز في الرد على دوهرنج وفي الاشتراكية الخيالية والعملية او ما قدمه ماركس (تطبيقات مختلفة حول رأس المال ، ثم في مقدمة الطبعة الثانية وفي « بؤس الفلسفة ») سوف يرى ان الثلاثية الهيجلية لم تتم الاشارة اليها مطلقا . (2)

ان التصور السليم الذي علينا ان نضعه للمنهج الجدلي يجب ان يكون صادرا عن فهم يتبع عن اصوله ، ويضع اعتبارا لاعمال اصحابه فلا يمكن ان نتجاهل مثلا كلمات انجلز في رسالته الى كونرادشيدت في 15 اغسطس 1890 والتي قال فيها : « ولكن نظرتنا في التاريخ هي قبل كل شيء مرشد للدرس وليست اداة بناء وفقا لاسلوب الهيجليين . (2)

لقد قال انجلز هذه الكلمات وهو يتعرض لأولئك الذين لديهم افكار ساذجة عن المادية ويتصورون انهم باطلاق كلمة مادي على اي شيء يستغنون عن الدراسة والبحث .

6 - اما حول ادعاء ان النظرية المادية لماركس وانجلز تغفل جميع العوامل ما عدا العامل المادي فان انجلز رد ايضا هذا التحريف بقوله : « تنظر النظرية المادية في تعيين مجرى التاريخ واحداثه ولسم يقل كلانا - ماركس وانا - شيئا اكثر من هذا . فاذا قام احد بتحويل دعواتنا الى القول بان العنصر الاقتصادي هو الوحيد الذي يعين سير التاريخ ، فانه بعمله هذا يجعل من نظرتنا عبارة عديمة المعنى ، مجردة ، وسخيفة .

ويستطرد انجلز موضحا ان المركز الاقتصادي هو الاساس ولكن العناصر المتنوعة التي يتكون منها الصرح العلوي كالاشكال السياسية

(1) انجلز ، الرد على دوهرنج ، الجزء الاول : الفلسفة ، الفصل الثالث عشر - الديالكتيك - نفي النفي .

(2) Lenin, OP. Cit, P, 165

(3) التفسير الاشتراكي للتاريخ - مقتطفات من انجلز - ترجمة راشد البراوي دار النهضة العربية ، القاهرة 1968 (ص 127) .

التي يتخذها نضال الطبقات وما يترتب عليه من نتائج ، واشكالات القانون ، وحتى الصور الذهنية التي تعكسها هذه العوامل في اذهان الناس والمحاربين كالنظريات السياسية والدينية والافكار ، هذه جميعها لها اثرها في مجرى نواحي الصراع التاريخي ، بل وفي كثير من الاحيان تكون لها الغلبة . هناك علاقة متبادلة بين كافة هذه العناصر وفي النهاية نجد ان الحركة الاقتصادية هسي العنصر الضروري والجوهري .

ان ماركس وانجلز لم يعلنا تمسكهما بهذا الراي فحسب بل طبقاه في ابحاثهما . ومن ابرز اعمال ماركس التي اوضح فيها مدى تشابك هذه العوامل ومدى تأثير العوامل غير الاقتصادية كتاب « الثامن عشر من برومير ، لويس بونابرت » . ولا بد ان نقول ان هذا الكتاب وضع عام 1852 اي بعد صدور البيان الشيوعي بحوالي اربع سنين . واهمية ذلك هي ان البعض يرى ، ومنهم جورج جريفيتش - ويتردد صدى هذه الرؤية في مصر - ان ماركس الشاب ، او الماركسية قبل البيان الشيوعي (4) هي التي تضع اعتبارا لكل العوامل وليس العامل الاقتصادي وحده . ان ماركس يوضح في ذلك الكتاب مدى تأثير التقاليد والمثل القديمة في الاحداث بل وفي الثورات . وعلى سبيل المثال فان الناس وهم يصنعون تاريخهم لا يستطيعون التخلص من تأثير تقاليد الاجيال الماضية . وعندما يشغل هؤلاء الناس فسي تغيير الاشياء المحيطة بهم وخلق شيء جديد ، عند ذلك بالضبط وفي فترات الازمات الثورية نراهم يلجأون في وجل الى استحضار أرواح الماضي لتخدم مقاصدهم ويستعيرون منها الاسماء والشعارات القتالية . وهكذا ارتدى لوثر قناع بولس الرسول واكتست ثورة 1789 - 1814 بثوب الجمهورية الرومانية تارة وثوب الامبراطورية الرومانية تارة اخرى فقد كان بحث الوتى في تلك الثورات يؤدي مهمة بمجيد الصراعات الجديدة .

٢ - النظرية المادية واهميتها لعلم الاجتماع

قام ماركس وانجلز بانتقاد اساليب البحث السابقة عليها وكذلك التفسيرات التي تقدم حول قضايا التطور الاجتماعي ، وعلنا ان تلك الاساليب غير قادرة على تقديم اساس سليم للنظرية الاجتماعية .

فكل النظريات ومناهج البحث كان يشوبها هدف مثالي وتسعى الى حقيقة ابدية قائمة على تصورات مسبقة . ولم يشذ عن ذلك حتى ماديمو القرن الثامن عشر واولئ التاسع عشر ، وان كان بعضهم اقترب كما قال انجلز من الفكرة التي توصل اليها ماركس عن نقطة البدء في فهم وتفسير الظاهرة الاجتماعية .

فحينما كشف ماركس النظرية المادية في تفسير التاريخ كان تيرى ومينيه وجيزو وجميع المؤرخين الانجليز حتى 1850 ، قد قدموا البرهان على انهم كانوا يسعون الى تحقيق هذا الكشف (5) .

كما ان هيجل رغم عبقرته وصيافته لقوانين الجدل قد انتهى الى نظام او مذهب ، حيث يسير التاريخ صوب هدف مثالي منذ الازل كالفكرة المطلقة . وبهذا يظهر الطابع اليقيني في نظام هيجل وهو طابع يخالف طريقته الجدلية التي تهتم مذهب اليقين ذاته (6) .

- التهمة على الصفحة 53 -

(4) رسالة انجلز الى يوسف بلوخ في 21 سبتمبر 1890 (المرجع السابق) ص 127 - 128 .

(5) رسالة انجلز الى ستار كينبرج في 25 يناير 1894 (التفسير الاشتراكي للتاريخ) ترجمة راشد البراوي ، ص 128 .

(6) انجلز ، لودفيج فيورباخ ، (التفسير الاشتراكي للتاريخ) ، ترجمة راشد البراوي ، ص 22 - 24 .

المنهج الجدلي في عالم الاجتماع

تابع المشور على الصفحة ١٢

وينفذ انجلز فكرة هيغل التي ترى ان الحركة الجدلية فسي الطبيعة والمجتمع ، اي العلاقة المتداخلة العلمية في حركة التقدم من الأدنى الى الأعلى ، والتي تبدو خلال كافة الحركات الحلزونية ونواحي التوقف المؤقتة ، ليست الا صورة او نسخة للحركة الذاتية التي تقوم بها الفكرة منذ الازل ومستقلة عن اي انسان مفكر وان كنا لا نعرف ابن توجد . وكان لا بد من القضاء على هذه المذهبية المغلوبة الوضع .

يمثل هذا النقد توصل ماركس وانجلز الى ادراك الافكار وفقا للنظرية المادية . وكانت نقطة البداية في ابتعادهما عن انصار هيغل تمثل في مؤلفهما « الحوليات الالمانية الفرنسية لعام ١٨٤٤ » German French Year- books, 1844,

وقد اشتمل هذا المجلد على مؤلفي ماركس « مساهمة في نقد فلسفة الحق لهيغل و « حول المسألة اليهودية » ، ومؤلفي انجلز « الوضع في إنجلترا » و « مختصر لنقد الاقتصاد السياسي » الذي كتبه قبل ان يلتقي بماركس ، وفي انتقاد ماركس لفلسفة الحق عند هيغل اعلن ان التحول الاجتماعي لا يمكن تفسيره بوعي الناس وانما بتحليل العلاقات الاجتماعية .

ثم اعلن في المخطوطات الاقتصادية - الفلسفية (١٨٤٤) ان العمل ، اي الانتاج المادي ، لعب دورا حاسما في ظهور وتطور البشرية غير ان العمل قام في نفس الوقت الذي طور فيه الانسان باستعباده . وهنا يظهر مفهوم ماركس عن « الاغتراب » كظاهرة اجتماعية غير ان الاصطلاحات التي استخدمها في هذا المؤلف كانت تبين تاثره بفيورباخ . اما الصياغة العامة والتحول الكامل في افكار ماركس وانجلز فيظهران في « العائلة المقدسة » The Holly Family.... و « الايدولوجية الالمانية (٥ - ٦) » The German Ideology

ويمثل كتاب الايدولوجية الالمانية حسب كلمات ماركس في مقدمة كتابه مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي (١٨٥٩) واستقرار فكرهما كما به صياغة للمفهوم المادي للتاريخ الذي استمرا يعمقانه في بقية المؤلفات .

وفي مؤلف انجلز « الرد على دوهرنج » ، والذي قرأ ماركس مخطوطته قبل ان ترسل للنشر ، يستعرض انجلز بشكل تفصيلي عدة قضايا هامة :

- ١ - اشكال القصور في اساليب البحث السابقة عليهما .
 - ٢ - المبررات التاريخية لذلك المعجز .
 - ٣ - المهمة التي كان على النظرة المادية في التاريخ ان تنجزها في مجال الدراسات الاجتماعية .
 - ٤ - الاسس الاساسية للنظرية الاجتماعية التي لا غنى عنها للمنهج في دراسة المجتمع .
- وحول النقطة الاولى والثانية نجد ان انجلز يتحدث على هذا النحو :

« عندما ننظر الى الاشياء ، في الطبيعة او تاريخ البشرية ، او نشاطنا الذهني ، فان الصورة الاولى التي تخطر لنا تتكون من علاقات وتفاعلات متشابكة الى اقصى حد ، لا يبقى منها اي شيء كما هو او في الوضع الذي عليه بل ان كل شيء يتحرك ، يولد ، ويتحول ، وينتفى . ان هذا المفهوم البسيط عن العالم ، والذي يعتبر صحيحا في حده ذاته كان هو نفس مفهوم الفلسفة اليونانية القديمة ، والذي صاغه لاول مرة هرقلطس : كل شيء موجود وغير موجود ايضا ، لان كل شيء يجري ، كل شيء في تغير مستمر في صيرورة وانتهاء دائمين . غير ان هذا المفهوم الذي ينطبق بشكل صحيح على السمة العامة لمسورة الظواهر في مجموعها ، لا يستطيع ان يفسر التفاصيل التي تتكون منها

هذه الصورة ، وطالما لم نفهم هذه التفاصيل فلن تكون لدينا فكرة واضحة عن الصورة في مجموعها .

ولفهم هذه التفاصيل علينا ان ننزعها من روابطها الطبيعية والتاريخية ونفحص كلا منها وندرسه على حدة ، وفنا لطبيعتها واسباب وجودها ومؤثراتها وما الى ذلك » (١) .

ويستطرد انجلز قائلا ان الاسلوب المسافزيفي في التفكير ينشأ او يبدأ من نفس انجازات المناهج العلمية في التفكير . وبين كيف تأثرت الفلسفات الاجتماعية بذلك . فهو يقول :

« ان تحليل الطبيعة الى الاجزاء المكونة لها ، وتجميع العمليات والموضوعات الطبيعية المختلفة في فئات محددة ، ودراسة التكوين الداخلي للاجسام العضوية في اشكالها المتنوعة - كانت هذه هسي الشروط الاساسية للوثبات الجبارة في مجال معرفتنا بالطبيعة والتي تحققت خلال الاربعة قرون الماضية .

« ولكن هذا النهج في البحث أوردنا عادة ملاحظة الموضوعات والعمليات وهي في عزلتها ، وهي منتزعة من مجموع الروابط المتبادلة للاشياء ، ومن ثم النظر اليها في بنائها وليس في حركتها ، النظر اليها كاشياء ثابتة لا كاشياء متغيرة في اساسها ، النظر اليها في خمودها لا في حياتها .

« وحين قام ببيكون ولوك بنقل هذه النظرية للاشياء في ميدان العلم الطبيعي الى الفلسفة ولدا اسلوب التفكير الميتافيزيقي الضيق الذي يميز القرن الماضي » (٢)

كما يضيف انجلز الى ذلك بان ذلك التصور في البحث يرجع لظروف تاريخية (٣) حيث كان عليهم ان يفحصوا الاشياء قبل امكان فحص العمليات كان البحث يتم عن ماهية الشيء قبل ملاحظة ما يجري له من تغيرات . ولهذا كانت مهمة فلسفة التاريخ تنحصر في احلال العلاقات المتداخلة التي بصوغها عقل الفيلسوف محل العلاقات التي تبرزها الاحداث .

ولذا اصبح من الضروري القضاء على هذه العلاقات المتعقدة التي صاغها الذهن . ويكون القضاء عليها عن طريق كشف العلاقات الحقيقية ومعنى هذا العمل في النهاية كشف القوانين المتعلقة بالحركة وهي القوانين التي تحكم تاريخ المجتمع الانساني .

ان مهمة النظرية الماركسية تنحصر في انجاز هذا الواجب . فدور النظرية المادية في مجال المجتمع الانساني حسب كلمات احد مؤسسيها هو ما يلي :

« هذه النظرية تضع حدا للفلسفة في ميدان التاريخ كما وضعت النظرية الديالكتيكية في الطبيعة نهاية للفلسفة الطبيعية كلها وجعلتها غير ذات ضرورة ومستحيلة . لم يعد الامر عبارة عن اختراع علاقات متداخلة من ادمفتنا ، بل اصبحت المسألة عبارة عن كشف هذه العلاقة من الحقائق . اما الفلسفة التي ابدعت من نطاق الطبيعة والتاريخ فلم تتبق امامها سوى الفكر الخالص : نظرية قوانين عملية الفكر ذاتها ، اي المنطق والديالكتيك » (٤)

ان الماركسية بتحديدتها لوجه القصور في اساليب البحث والمهمة التي عليها ان تقوم بها قد اوجدت مدخلا لدراسة المجتمع . وقد ساهم هذا المدخل في ان نحسم ماركس وانجلز ثلاثا قضانا تعتبر اساسية بالنسبة للنظرية السوسيولوجية :

- ١ - ان الواقع الاجتماعي هو مصدر معرفتنا ، بمعنى ان الوجود الاجتماعي هو اساس الوعي الاجتماعي .
- ٢ - تأكيد فكرة النسبية في مجال العلوم الاجتماعية ، وان هناك وحدة جدلية بين النسبي والمطلق .
- ٣ - ان معيار صدق المعرفة هو التجربة العملية، وان هناك ارتباطا

(١) Engels, Anti-Dühring, Moscow, 1955, P. 32.

(٢) Ibid, P. 34.

(٣) انجلز ، لودفيج فيورباخ ، من ٦٦ - ٧٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٨٤ .

وتأثيرا متبادلا بين النظرية والعمل .
الاهمية المنهجية لهذه القضايا :

١ - ان حل قضية الوعي الاجتماعي على النحو الذي طرحه ماركس قدم اساسا منهجيا جديدا للدراسات السوسولوجية . فمقصد حدد مجال الدراسة لعلم الاجتماع بالإضافة الى ايجاد مدخل منهجي للدراسة فعندما يقول ماركس اننا يجب ان نبحث عن نشأة الافكار في الحياة الاجتماعية المادية فانه بذلك يوجه الانتظار الى مادة البحث السوسولوجي الواقعية بدلا من وضع افتراضات عقلية نفسرها بها الحياة الاجتماعية . وعلى سبيل المثال ، فقد انشد برودون لانه يضع الافكار اساسا للمجتمع ، ولذلك يضطر الى اخضاع افتراض العمل الكلي . وما أسهل ان نخترع عبارات مفرغة المعنى . ولكن « ما هو المجتمع ايا كان شكله؟ انه وليد النشاط المتبادل الذي يقوم به الناس » (١) .

في هذه الكلمات يحدد ماركس اصل ومثما الكونيات الاجتماعية بما في ذلك من افكار ونصريات . وسه طرد في نفس الرسالة قائلا ان برودون « لم يفهم ايضا ان الناس الذين ينتجون علاقاتهم الاجتماعية وفقا لمستوى انتاجيتهم ينتجون الافكار والمقولات ، اي التعبير الفكري المجرد لنفس هذه العلاقات الاجتماعية . ومن ثم فان هذه المقولات ليست اكثر خلودا مما تعبر عنه من علاقات . انها منتجات تاريخية ومؤقتة . ولكن على نقيض ذلك يرى برودون ان التجريدات والمقولات هي العملة الاولى ، وانها - وليس الناس - هي التي تصنع التاريخ » (٢) ان المقولات والافكار على هذا النحو ، اي مستقلة عن الناس ونشاطهم المادي ، تعتبر بالطبع خائبة وأبدية ولا تغير ، ويرفض ماركس ذلك ، لان التسليم به يعنى الافرار بعدم التطور ، والكف عن البحث والدراسة . فطالما ان المقولات ، هي في نظره القوة المحركة ، فليس من الضروري تفسير الحياة العملية اذا اردنا تغيير الافكار وانما العكس .

٢ - كان الفكر الاجتماعي مرتبطا في البداية - كما ذكرنا - بالفانية . لذلك كان التصور ان هناك كيانا واحدا للمجتمع . وعلى سبيل المثال فان القوانين الطبيعية نبعها لمفهوم الاقتصاد السياسي الكلاسيكي تتطلب قيام نظام الملكية الفردية والمنافسة الحرة ، وان هذا النظام ابدى . كما عبرت فلسفة التاريخ عن هذا التصور ايضا ، حيث تصور ان النمو البشري يجري في اتجاه واحد مستمر وكانه يتجه نحو هدف مسبق . وحتى اولئك الذين تعتبرهم كثير من الجامعات افضل من ساهموا في ارساء وتثبيت علم الاجتماع لم يستطيعوا ان يتخلصوا من مثل ذلك الفهم الخاطيء . فان القيم الانسانية عند اوجست كونت نزل بلا تغيير خلال التقدم (٣) . وحتى دوركايسم (١٨٥٨ - ١٩١٧) هو الاخر اكد ان المجتمع يسير نحو تحقيق فكرة التضامن العضوي (٤) .

غير انه كان هناك في نفس الوقت اتجاه يسير نحو اقرار فكرة قابلية النظم الاجتماعية للتغير . وساعد على ذلك تقدم علم التاريخ والاثنوغرافيا وظهور افكار داروين .

وقد افاد علم الاجتماع من تأكيد هيكل فكرة ان التناقض هو اساس كل حياة وكل حرية . فبفض النظر عن المثالية التي غلفت الجدل عنده فانه مهد الطريق لتحرر العقل من خرافة الثابت . ثم اخذت فكرة النسبية دفعة اخرى على يد انصار سان سيهون عندما أكدوا ان الملكية ظاهرة اجتماعية تخضع مثل الظواهر الاجتماعية الاخرى لقانون التقدم .

« ويمكن القول ان الماركسية بصفة خاصة هي الخطوة الحاسمة في هذا التغير نحو النسبية . فقد اعلن ماركس نفسه ، عندما اخذ في مراجعة نقد فلسفة القانون لهيكل ، انه اخذ بفكر بان العلاقات القانونية والاسكالم السياسية لا يمكن ادراكها بذاتها ، ولا يمكن ان نفسر بالعدم العام المزعم للعمل البشري .

« وفي هذه النقطة ، يبدو لماركس فصور فيورباخ وهيكل ، فكما ان جدل هيكل كان لا بد له ، على حد عبارته الشهيرة ، وان يعاد النظر فيه ليفف على قدميه ، فان النزعة الانسانية عند فيورباخ لا تنبعث فيها الحياة الا اذا استعانت بالتاريخ . ويعترض ماركس قائلا : « ان الكائن البشري ليس بجريدا مرتبطا بالفرد المنزول ، بل هو في حقيقته عبارة عن مجموع العلاقات الاجتماعية ، ويمكن تلخيص خطأ فيورباخ في انه صرف النظر عن مجرى التطور التاريخي وافترض موقفا موقفا وجود فرد انساني منزول . وعلى هذا النحو ينكر ، ان الفرد المجرد الذي يقوم بتحليله ينتمي في الحقيقة الى صورة مجتمعة معين » (٥)

كما نجد هذه النظره النسبية في مؤلفات انجلز . فهو يقول مثلا في « لودفيج فيورباخ » :

« ليس هناك شيء نهائي ، ولا مطلق ، ولا مقدس ، بالنسبة للفلسفة الجدلية . انها تكشف عن الطابع الانساني لكل شيء وفقى اي شيء » . (٦) .

غير ان تأكيد النهج الجدلي لفكرة النسبية لا يعني انه يفسح النسبي مقابل المطلق . فادراك النسبية لا يحدث بمعنى انكار الحقيقة الموضوعية وانما يعنى ان حدود اقتراب معرفتنا من هذه الحقيقة خاصة لظروف تاريخية .

ويقدر لينين استنادا الى مؤلف انجلز « الرد على دوهرنج » انه رغم المكانة التي نضعها الماركسية للنسبية فلا يمكن ان تجعل منها اساس في المعرفة فذلك معناه انكار لاي مقياس موضوعي او الواقع المستقل عن وعي الانسان والذي تعتبر معرفتنا تقريبا له . فان اقتراب معرفتنا من الحقيقة الموضوعية المطلقة مشروطة تاريخيا وتحكمها ظروف تاريخية ، غير ان وجود تلك الحقيقة غير خاضع لشرط » (٧) .

ويعني لينين انه ما دامت معرفتنا ليست الا تقريبات للواقع فهي تكون نسبية دوما ، غير انها بقدر ما تمثل التقريب الفعلي للواقع الموضوعي الموجود مستقلا عن وعينا ، تكون دوما مطلقة ، فان الصيغة النسبية والمطلقة للحقيقة تشكل وحدة جدلية غير قابلة للتقسمة . (٢) العلاقة بين النظرية والتطبيق :

يعتقد بعض علماء الاجتماع ان تقدم العلم والتخلص من الاتجاهات الفلسفية الفانية وفلسفة التاريخ يعني اغفال الجانب النظري او الفصل بين النظرية والعمل . ويرى كوفيليه انه يستحيل (٨) وضع مثل هذه التفرقة بصفة مطلقة ، لها عن طيب خاطر ، بانها حركية في اساسها ، وبين « المعرفة » التي يمكن بل يجب ان تبقى نظرية خالصة لتتسك الحقيقة . ليست هذه التفرقة التي حدثت عندما اتضح ان الانتقال من وجهة النظر المعيارية الى الوضعية كان احدى المراحل الضرورية لكويين علم الاجتماع كعلم ؟

وبعد ان يعرض كوفيليه هذه الحجة ، يقول ان وراء هذا

(٥) ارمان كوفيليه ، مقدمة في علم الاجتماع ، ترجمة السيد محمد

بدوي وعباس احمد الشرييني ، دار المعارف ، ص ٢٠ - ٢١

(٦) نقلها لينين في كتابه « مصادر الماركسية » عن مؤلف انجلز « لودفيج فيورباخ » .

(7) Lenin, Materialism and Emprio - Criticism (Collected Works, V. 14, Moscow, 1962. PP; 136 - 137.)

(٨) ارمان كوفيليه ، المرجع ذاته ص ١٠٠ - ١٠٢ .

(1) Marx to P. V. Annenkov, Desember 28, 1846. (Poverty of Philosophy, Moscow, 1966, P-156)

(2) I bid, P. 166.

(3) Gurvich, op-cit, P. 42.

(4) ibid, P. 48.

الاعتراض عالميا من الاوهام .

اما اولئك الذين ينكرون هذا الدور الذي لعبه ماركس في نفس الوقت الذي قد يضعون في اعتبارهم ما قدمه ويرددونه ، فان انجلز يقول (٥) عنهم : انهم سيمتجون ولا شك عندما يكتشفون انهم امضوا حياتهم يتحدثون نشرا دون ان يدركوا ذلك ، مثلهم مثل « جوردان بطل احدى روايات مولير » .

- ٢ -

تعريف المنهج ومكوناته

(١) تمهيد :

تتناول الدراسات الاجتماعية الظواهر والعمليات التي تظهر وتحدث في الحياة الاجتماعية . بد ان هذه الموضوعات تتعرض لها علوم اجتماعية عديدة : الاقتصاد السياسي والتاريخ المدني الى جانب علم الاجتماع ، ومع ذلك فان المادية التاريخية لها موضوعها الخاص الذي تدرسه . وان ما يميزها عن العلوم الاجتماعية الاخرى هو ان تلك العلوم تدرس مجالات مفصلة من الحياة الاجتماعية ، على سبيل المثال : الدولة والاقتصاد ، والحياة الثقافية وما الى ذلك . ولكن حياة المجتمع في تكامل وترابط بين المظاهر المختلفة ، لذلك فان تلك الدراسات لا تنفي الحاجة الى دراسة عامة للمجتمع ، دراسة للروابط والعلاقات بين الواجه المختلفة للحياة الاجتماعية في استمرارها التاريخي .

وفي هذه النقطة بالتحديد تتميز المادية التاريخية عن العلوم الاجتماعية الاخرى . فهي تتناول المجتمع في مجموعه وتكشف عن قوانينه العامة ، وعن عملية التفاعل والروابط المتبادلة بين الواجه المختلفة للحياة الاجتماعية . وعلى سبيل المثال : بين الاساس المادي للمجتمع والبناء الفوقي « بين الاقتصاد والسياسة » .

ومعنى ذلك ، انها تضع منهجا لعلم الاجتماع في مقابل الدراسات السوسيولوجية المنتشرة كثيرا والتي تقتصر على وصف الاحداث الاجتماعية او المظاهر المختلفة للحياة وهي في عزلتها ، وكأنها ذرات لا رابطة بينها . وفي معرض توضيح اهمية المادية التاريخية في هذا الصدد يقول لينين : « ان علم الاجتماع فيما قبل ماركس والتدوين التاريخي يقدمان - في احسن الاحوال - تراكما من الحقائق الاولى التي جمعت بطريقة عشوائية ، ووصفا لبعض جوانب العمليسات التاريخية ، ولقد اوضحت الماركسية بفضل دراستها لمجموع الاتجاهات المتعارضة وارجاعها - على وجه الدقة - الى ظروف الحياة والانتاج المحددة لطبقات المجتمع المختلفة وتحتيتها النزعة الذاتية والعشوائية عند انتقائها للافكار « الموجهة » المختلفة او في تفسيرها ويكشفها عن ان كل الافكار ، كل الافكار المختلفة دون استثناء لها جذورها فسي ظروف القوى المادية للانتاج ، ووضحت الطرق الى دراسة شاملة تستوعب عملية نشأة التكوينات الاقتصادية - الاجتماعية وتطورها وتدهورها . (٦)

(٢) تعريف المادية التاريخية :

اذا كانت المادية التاريخية هي امتداد المادية الجدلية الى مجال الحياة الاجتماعية ، ومن هنا فهي جزء لا ينفصل عن مكونات النظرية الماركسية فان لها - كما ذكرنا - ميدانها ومقولاتها الخاصة النابعة من الطبيعة النوعية للحياة الاجتماعية . وعلى اساس ذلك نجد ان جازمان وضع لها التعريف التالي :

« المادة التاريخية هي النظرية العامة للعملية التاريخية ثم

فالوا : يرى « لاهي » ... احد علماء النفس التكنولوجي ان العلوم تنشأ عن ابتكارات بحققها الانسان في الميدان العملي ، ومن هذه الطرق العملية ، وبفضل المناهج التي تسير اكثر فاكتر نحو الكمال تتولد النظرية ، ثم عن طريق الحركة الجدلية يظهر العلم ، فالعلم اذن ليس هو النظرية الخالصة ، ولا مجرد التطبيق العملي ، ولكنه مركب من العمل الموجه بالنظرية ومن النظري الذي لا ينفك بزاد نراء بالعمل .

وثانيا : فان المعرفة التي يعطينا اياها علم الاجتماع عن التطور البشري تؤثر على الفكرة ذاتها التي يمكن ان تكونها عن العلم الوضعي وان اية صورة من صور الفكر لا بد ان تكون دائما نتاجا تاريخيا لظروف اجتماعية محددة .

وثالثا : ليس « هناك اشد معارضة لعلم الاجتماع ، في رأينا من ذلك الادعاء لعالم الاجتماع الذي ينصب نفسه « شاهدا » فحسب ، ويتجرد على هذا النحو من التاريخ بطريقة ما ، ذلك ان عالم الاجتماع هو بالضرورة انسان من عصر معين وبيئة معينة ، لا يستطيع ان يعيش كآلهة ابيقور فيما بين العوالم ، وفضلا عن ذلك فان تاريخ علم الاجتماع ذاته يثبت ذلك بصورة كافية . حقيقة ان الماركسية وحدها هي التي اكدت في جلاء ذلك التضامن الوثيق بين كل نظري وكل عملي ، لدرجة انه خلال المناقشة التي حدثت عام ١٩٠٢ ، في الجمعية الفرنسية للفلسفة اعتقد جورج سورل (G. Sorel) انه يستطيع عن طريق هذا التضامن ان يعرف المادية التاريخية « (١) .

ونعتقد ان الآراء التي توصل اليها كوفيليه ، خاصة ما نقله عن « لاهي » يمثل اتجاه المنهج الماركسي ، حيث تعتبر النظرية مرشدا للعمل ، وحيث تعتبر الممارسة العملية طريق اختبار النظرية . فماركس يرى ان ربط النظرية بالعمل هو ضمان حمايتها من التحريف والتصاقها بالاهام . فان « الحياة الاجتماعية هي من ناحية الجوهر عملية . وكل الاسرار التي تحرف النظرية نحو الصوفية تجد حلا عقليا في نشاط الانسان العملي ، وفي فهم هذا النشاط « (٢) .

لقد قدمت النظرية المادية لماركس ، وكذلك الآراء التي وضعتها حول النسبية والعلاقة بين النظري والعملي ، اساسا لانفراج علم الاجتماع : تحديد مجال الدراسة وتقديم منهج جديد ونخلص العلم من فلسفة التاريخ والمناهج المثالية :

وقد ادرك بعض علماء الاجتماع هذه الحقيقة :

١ - يقول بوتومور ان جروپالي Groppeali قد استعرض كتابات ماركس ابتداء من « الحوالمات الالمانية - الفرنسية (١٨٤٤) » حتى « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي (١٩٥٩) » واعلن انها تكشف عن التحرر الانتقادي لفكر ماركس من قبود فلسفة هيغل ، وقال ان المفهوم المادي للتاريخ ليس نسقا ميناظيقيا وانما اداة لتفسير وشرح الحياة الاجتماعية وقد اختبر ماركس نفسه صحتها بدراساته التاريخية والاقتصادية (٣) .

ب - كما نجد جريفيتش يعبر عن مدى اهمية القضايا النسبية عرضناها ودور ماركس الفريد بقوله ان احد جوانب اختلاف ماركس عن الرواد الاوائل في علم الاجتماع تتمثل في انه لعب دورا في تحرد علم الاجتماع بعلم الخلط بين مجاله ومجال دراسة التاريخ ثم بادخال علم اجتماع المعرفة وبذلك نجح في ان يضع نسبية المعاملات الانسانية في علم الاجتماع (٤) .

(١) الرجوع السابق ص ١٠٢

(2) Marx, Theses on Feurbach, (German Ideology, Proyrss Puhlshers, Moscow, 1964, P. 647.)

(3) Bottomore, OP. cit, P. 57.

(4) Gurvich, OP. cit, P. 38.

(5) Engels, Dialectics of Nature, Moscow, 1966, P. 88.

(6) Lenin, The Three Sourees and Three Component Parts of Marxism , Moscow , P . 28

استخلاصها من دراسة التكوينات الاقتصادية - الاجتماعية ، وهي في نفس الوقت منهج لاكتساب المعرفة بالظواهر الاجتماعية (1) .
ان هذا التعريف ، يشير الى ثلاث فضايا يمكن اعتبارها مكونات للمنهج :

١ - ان هذه النظرية العامة ليست مستمدة من نسق فلسفي تأملي ولكنها جاءت نتيجة دراسة تكوينات اقتصادية - اجتماعية معينة واستخلاص العوائين التي تحكم تلك التكوينات . ويمكن ان نترجم هذه القضية في صياغة محددة وهي ان المادة التاريخية تستهدف تعميم قوانين التطور الاجتماعي المستخلصة من الدراسات الواقعية .

٢ - ان هذه النظرية العامة للعلاقة التاريخية تقوم على النظرة المادية وفي هذه النقطة تكمن العلاقة المتشابكة مع المادة الجدلية .

٣ - والقضية الثالثة التي يشير اليها التعريف هي ان المادة التاريخية تعني ايضا صياغة منهج للبحث .
(١) كيف يتم تعميم قوانين التطور :

والادراك محتوى هذه الفضايا وما يرمي اليه ، علينا ان نستعرض جوهر النظرة الاجتماعية عند ماركس وكيف صاغ المفهوم المادي للتاريخ ومضى في تحقيقه بدراساته المتصلة .

ان نقطة البدء عند ماركس هي البحث عن العلاقة الاولى التي تميز المجتمع الانساني ، اي تلك العلاقة التي تلحق فيها كل الظواهر المتباينة في الحياة فان المجتمع وكل شيء يتعلق بتاريخه هو نتاج جمع غير من الافراد رجالا ونساء وتصرفات الافراد متغايرة الى اقصى حد ، ولكن مهما كان التباين فانهم يعملون شيئا واحدا مشتركا هو الانتاج الاجتماعي . ومن هنا ، فان ماركس اعتبر العمل الانتاجي هو العلاقة الاولى بين الطبيعة والانسان . وهذه السمة النوعية التي تميز الحياة الاجتماعية هي التي جعلته يرفض فكرة تفسير الحياة الاجتماعية سواء باستخدام « الفيزيقيا الاجتماعية » او « الفسيولوجيا الاجتماعية » .

ولذلك قال : ان تفسير الحياة والتطور يجب البحث عنه فسي الاساس المادي الانتاجي للحياة الاجتماعية ، وان تطور التكوينات الاقتصادية الاجتماعية هي عملية من عمليات التاريخ الطبيعي وقد قام ماركس بعزل المجال الاقتصادي عن المجالات الاخرى للحياة الاجتماعية ، اي عزل علاقات الانتاج من بين كل العلاقات الاجتماعية واعتبرها العلاقة الاولى والاساسية التي تتحدد وفقا لها العلاقات الاخرى .
وفي مقدمة كتاب « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » يشرح ماركس كيف كان يفكر حول هذه القضية وما توصل اليه . وهذا الشرح يمثل المبادئ الجوهرية للمادية عند تطبيقها على المجتمع الانساني :

« ان العمل الاول الذي قمت به لتبديد الشكوك التي كانت تراودني هو العرض الانتقادي لفلسفة الحق لهيجل ... وادي بحثي الى ان العلاقات القانونية وكذلك اشكال الدولة لا يمكن فهمها من ذاتها ولا مما يسمى بالتطور العام للعقل البشري ، وانما على الاصح لها جذورها في الظروف المادية للحياة . والنتيجة العامة التي توصلت اليها ... يمكن صياغتها باختصار كما يلي :

« يدخل الناس خلال قيامهم بعملية الانتاج الاجتماعي في علاقات محددة لا يمكن الاستغناء عنها ومستقلة عن ارادتهم . وعلاقات الانتاج هذه تتطابق مع المرحلة المحددة لتطور القوى المادية للانتاج . وشكل المجموع الكلي لعلاقات الانتاج هذه البناء الاقتصادي للمجتمع وهو الاساس الذي يقوم عليه البناء الفوقي السياسي والقانوني والتي تتطابق معها اشكال محددة للوعي الاجتماعي . ان اسلوب mode انتاج الحياة المادية هو الذي يحدد عمليات الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية بشكل عام . فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم ولكن على

العكس من ذلك فان وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم . وفي مرحلة معينة من مراحل تطور قوى الاساج المادية في المجتمع تصادم هذه القوى مع علاقات الانتاج القائمة - ومع علاقات الملكية التي كانت تمارس نشاطها من قبل في اطرافها . وعلاقات الملكية هذه ليست سوى التعبير القانوني لعلاقات الانتاج . وخلال تطور قوى الانتاج سخول علاقات الملكية الى فيود محد من عملية التطور . وعندئذ بدأ فتره من الثورة الاجتماعية . ومع تغير الاساس الاقتصادي بتغيير كل البنساء الفوقي الهائل ، مع تفاوت في سرعة هذا التغير . وعندما نظر الى هذا التحول يجب علينا ان نميز بين تحول الظروف الاقتصادية للانتاج التي يمكن ان تتحدد بنفس دقة العلوم الطبيعية وبين الاشكال القانونيه والسياسية والدينية والفلسفية والفنية ، او باختصار الاشكال الابديولوجية التي تنبئ الناس الى هذا التصادم فيقايومونه . وكما ان فكرتنا عن الفرد لا تبنى على اساس ما يعتقد هو عن نفسه فانسالا يمكننا ان نحكم على مثل فترة التحول هذه على اساس ما سجد فيها من وعي ، بل على العكس من ذلك ، فان هذا الوعي يجب ان يفسر من خلال تناقضات الحياة المادية ، وعن طريق الصراع القائم بين القوى الاجتماعية للانتاج وعلاقات الانتاج .

ولا يزول اي نظام اجتماعي ابدا قبل ان تنمو كافة القوى الاناجية التي تجد مجالا للنمو فيه ، ولا تطور علاقات اساج اعلى عرجية عن سابقتها قبل ان تنضج في داخل المجتمع القديم الاحوال المادية اللازمة لوجود هذه العلاقات .

« وهكذا فاننا نستطيع ان نحدد الخطوط العريضة لاساليب الانتاج الاسيوية والقديمة والاقطاعية والبرجوازية الحديثة وغيرها من اساليب الانتاج في كافة العصور التي اجتازتها عملية الكون الاقتصادي في المجتمع » (٢)

تلك هي الاسس العامة للمادية التاريخية والتي اعتبرها لينين انها كانت بمثابة أحد الفروض التي قام ماركس بتحقيقها فيما بعد في مؤلفه « من هم اصدافاء الشعب » ، الذي يناقش فيه افكار بعض علماء الاجتماع في روسيا نجد لينين يقول :

« ان فكرة المادية هذه في علم الاجتماع كانت في حد ذاتها ضربا من العبقرية . وبالطبع كانت لبعض الوقت مجرد احد الفروض ، ولكنه فرض خلق امكانية معالجة علمية ودقيقة للقضايا التاريخية والاجتماعية » (٣)

ثم يعرض لينين بعد ذلك عدة اسباب لتأييد هذا الرأي :

أولا : كان علماء الاجتماع قبل ذلك لا يهتمون بمعرفة ما هي العلاقات الاولى ، ومع ذلك تراهم يقومون ببحث ودراسة الاشكال السياسية والقانونية معتمدين على انها نشأت عن افكار بشرية معينة . ومثال ذلك المفهوم الذي عبر عنه كتاب « العقد الاجتماعي » . فالحقيقة انه لم يحدث ان أدرك اعضاء المجتمع العلاقات الاجتماعية التي يعيشونها كشبه محدد ومتكامل ، بل انهم يكيفون أنفسهم مع هذه العلاقات ، كما ان مفهومها عنها - باعتبارها علاقات اجتماعية تاريخية ومؤقتة - ليس سوى مفهوم بسيط غير متكامل . وقد ازلت المادية هذا الغموض والتناقض بالضي في تحليل أعمق حول أصل افكار الانسان الاجتماعية ذاتها . وذلك على اساس ان سمة واتجاه نشاط الانسان تحدده ظروف الحياة المادية ولكن مع اعتبار ان هذه الظروف يغيرها الناس انفسهم . فهم يملكون وعيا واردة ، اي مع اعتبار السمة الواعية للحياة الاجتماعية في اختلافها عن الطبيعة . « فكل منتج على حدة يسدرك بالطبع انه يدخل هذا التعديل او ذاك في تكتيك الانتاج ، وكل مالك

(2) Marx and Engels, Selected Works V, I, Moscow, 1958, PP. 362 - 363.

(3) Lenin, Collected Works, V. I. P. 199

(1) Glezerman, OP. Cit, P. 24.

يدرك بالطبع انه يبادل منتجاته بمنتجات اخرى ، ولكن هؤلاء المنتجين والمالكة لا يدركون انهم بهذا يفيرون الوجود الاجتماعي .
ان سبعين شخصا من امثال ماركس لا يستطيعون ان يستوعبوا كل هذه التغييرات في جميع فروع الاقتصاد العالمي ، والامر الجوهري هو انه قد تم اكتشاف قوانين هذه التغييرات ، وان المنطق الموضوعي لهذه التغييرات وتطورها التاريخي قد تم تبينها . . فحقيقة انك تعيش وتقوم باعمالك وتنجب اطفالا وتنتج وتبادل ، تؤدي الى نشأة سلسلة من الاحداث ، سلسلة من التطور الضرورية موضوعيا والمستقلة عن وعيك الاجتماعي ، والتي لم يدركها الوعي بشكل كامل مطلقا ، وان الواجب الاسمي للانسانية هو ان ندرك هذا المنطق الموضوعي للتطور الاقتصادي - لتطور الحياة الاجتماعية - بقسماته العامة والاساسية (1) .

وثانيا - ان هذا الفرض كان اول شيء يصل بعلم الاجتماع الى مستوى العلم (2) . فقد كان علماء الاجتماع غير قادرين على ان يميزوا بين ما هو هام وغير هام في الشبكة المعقدة للظواهر الاجتماعية . ومن ثم كانوا غير قادرين على ايجاد معيار موضوعي لعملية التمييز . وقد قدم ماركس العيار المطلوب عن طريق عزل علاقات الانتاج على انها تمثل هيكل المجتمع . وان تحليل هذه العلاقات جعل من الممكن ان نلاحظ التكرار والانتظام في الظواهر الاجتماعية وان نقوم بتعميم انظمة البلدان المختلفة في مفهوم اساسي هو « التكوين الاجتماعي » Social Formation وكل تكوين اجتماعي يميزه نوع معين من علاقات الانتاج ، الا ان ذلك لا يعني ان هذا التكوين لا يشمل الا الاساس الاقتصادي . انه يتضمن ايضا البناء الفوقي بكل مظاهره .

ان هذا التعميم هو الذي جعل من الممكن ان ننقل علماء الاجتماع من مجرد وصف الظواهر الاجتماعية وتطورها من وجهة نظر مثالية او مجرد جمع المواد الخام الى التحليل العلمي الدقيق الذي يعزل ، ونقول على سبيل المثال :

ما يميز بلدا راسماليا عن اخر ويبحث ما هو عام او مشترك بينهما . فكل تطور هو مزيج بين ما هو فريد ولا يقبل التكرار وبين ما هو عام ومشارك وقابل للتكرار ، اي اتحاد ما بين الفسدي والعام . فجميع المجتمعات الاقطاعية على سبيل المثال ، تحكمها قوانين اساسية مشتركة ، ولكن كل بلد على حدة له ما يميزه ويؤثر ايضا على ما هو عام . فمثلا كان لاعتماد مصر على النيل وما تطلبه ذلك من ادارة مركزية اثره على القوانين العامة للتكوينات الاقطاعية ، فاتخذ الاقطاع في مصر طابعا مميزا عن اوربا ، ومن هنا فان هذا المفهوم يقر بوجود قوانين عامة وقوانين نوعية في كل التكوينات .

ان مفهوم التكوين الاجتماعي يتعارض مع تلك الدراسات واساليب البحث المنتشرة عند بعض علماء الاجتماع المعاصرين الذين لا ينظرون الى المجتمع كبناء في مجموعه بل بمضون في بحث بعض جوانب الحياة في معزل عن بعضها .

كما ان هذا الفرض خلق امكانية وجود علم اجتماع علمي (3) . فان اختزال العلاقات الاجتماعية الى علاقات الانتاج واختزالها الى مستوي القوى الانتاجية قد قدم اساسا راسخا لمفهوم ان تطور المجتمع عملية تاريخية طبيعية . وبدون تلك النظرية لا يمكن ان يوجد علم اجتماعي . فمثلا على الرغم من ان الذاتيين يعترفون بان الظواهر التاريخية تمثل الى قانون فانهم غير قادرين على اعتبار تطور تلك الظواهر كعملية تاريخية طبيعية . وذلك

لانهم على وجه التحديد يرتكون امام الافكار الاجتماعية للانسان واهدافه وغير قادرين على ارجاعها الى العلاقات الاجتماعية المادية . كيف حقق ماركس هذا الفرض ؟

بعد ان وضع ماركس صياغته لهذا الفرض في اربعينيات القرن التاسع عشر ، مضى يدرس العطيات الواقعية لاحد التكوينات الاقتصادية - الاجتماعية (التكوين الرأسمالي) . وظهرت هذه الدراسة في شكل المؤلف الضخم « رأس المال » . فائتاء تحليل ماركس للمجتمع الرأسمالي من زاوية علاقات الانتاج قام بدراسة البناء الفوقي المتطابق مع هذه العلاقات فاطهر التكوين الاجتماعي الذي يدرسه بكل جوانبه ومظاهره الاجتماعية والتناقضات التطبيقية الكامنة في علاقات الانتاج .

ولقد اسس ماركس هذه النتائج باستخدام مجموعة ضخمة من الحقائق والبيانات الواقعية التي جعلته قادرا على وضع تعميماته . وفي هذا الصدد نجد لينين يعقد مقارنة بين داروين وماركس ويقول :

« كما ان داروين وضع حدا للمفهوم الذي يرى ان انواع الحيوان والنبات لا يرتبط بعضها ببعض ، وانها عرضية ولا تتغير ، وكما انه كان بذلك اول من وضع علم الحياة على اساس علمي بشكل كامل ، حين اثبت تغيير الانواع وتسلسلها ، كذلك نجد ان ماركس وضع هو الاخر حدا للمفهوم الذي كان يرى ان المجتمع تجمع آلي من افراد يتعرض لكل انواع التبدل وفقا لاهواء السلطات (او وفقا لاهواء المجتمع والحكومة) ، وان ذلك المجتمع يولد ويتغير وفقا للصدفة ، وكان ماركس بذلك اول من وضع اساسا علميا لعلم الاجتماع حين اقام مفهوم التكوين الاقتصادي للمجتمع على انسه مجموعة من علاقات الانتاج ، وحين قرر ان تطور تلك التكوينات عملية تاريخية طبيعية .

« والان ومنذ ظهور « رأس المال » لم يعد المفهوم المادي للتاريخ مجرد فرض وانما قضية تمت برهنتها علميا » (4)

ان البعض قد يختلف مع النتائج التي نوصل اليها ماركس ، ولكن سيبتعد عن الصواب من يقول ان المنطق الذي استخدمه ماركس (ليس منظما منهجيا يتخذ نقطة البداية من الظواهر) مثلما يقول محمد فتحي الشنيطي في كتابه : « الفلسفة الماركسية » .

والغريب ان لينين يدفع عن ماركس اتهامها بوجه اليه من الزاوية المقابلة تماما ، وكان الشنيطي لم يقرأ ماركس او النقد الذي وجه اليه . فائتاء مناقشة لينين لكتابات ميخالوفسكي عن ماركس و « رأس المال » يقول :

« فان تيدا بالسؤال عن ما هو المجتمع وما هو التقدم يعني ان تيدا من النهاية . فمن اين تحصل على مفهوم عن المجتمع وعن التقدم عموما اذا لم تكن قد درست تشكيلا اجتماعيا واحدا على وجه الخصوص . اذا لم تكن قادرا ايضا على اقامة هذا المفهوم ، اذا لم تكن قادرا ايضا على القيام بمعالجة موضوعية جادة ، اي تحليل موضوعي ، للعلاقات الاجتماعية من اي نوع كانت ؟ ان هذه علامة واضحة على الميتافيزيقية التي تيدا مع كل علم . فطالما ان الناس لا يعرفون كيف يشعرون في دراسة الحقائق ، فانهم يخترعون عادة نظريات عامة مسبقة ، وعادة ما تكون هذه النظريات عقيمة » (5) .

ان لينين يقرر بذلك ان الخطوة الجبارة التي قام بها ماركس تكمن بالتحديد في انه استبعد الجدالات حول المجتمع وحصول التقدم واوجد تحليلا علميا لمجتمع معين . « غير ان ميخالوفسكي يلوم ماركس لانه بدأ البداية الصحيحة ولم يبدأ من النهاية ، ولانه

Lenin, Collected Works, V. 14, P. 325

Lenin, Collected Works, V. I. P. 140

Ibid, P. 141

Ibid, PP. 141 - 142 .

Ibid, P. 144

- ٤

- ٥

- 1

- ٢

- ٣

بدا بتحليل الحقائق وليس بالاستنتاجات النهائية ، بدأ بدراسة علاقات اجتماعية معينة تحددت تاريخيا ولم يبدأ بنظريات عامة عن مكونات هذه العلاقات الاجتماعية» (1)

ولكن هل صياغة مفهوم التكوين الاجتماعي ونعيم قوايين التطور يعنيان ان المادة التاريخية تفسر كل شيء ؟ وهل يتناقض هذا المفهوم مع قول انجلز ان « نظريتنا انما مرشد البحث » ؟

ان الطريقة التي حقق بها ماركس الفرض الذي وضعه هي التي جعلت جلزerman يقول في تعريفه للمادية التاريخية انها قد استخلصت من دراسة التكوينات الاجتماعية .

ونعتقد ان هذا القول لم ينسب الى ماركس شيئا لم يكن يقصده ، فقد حدد بنفسه الهدف من كتاب « رأس المال » في مقدمة الكتاب بقوله:

« ان الهدف الاساسي لهذا العمل هو كشف القانون الاقتصادي لتطور المجتمع الحديث » والقيمة الاساسية هنا هي قيمة منهجية .

والشيء الهام في هذا المنهج هو معالجة موضوعية للقانون الذي يحكم الظواهر موضع البحث واهوار قانون التغير ، اي تطورالظواهر وتحولها من شكل الى اخر . وان المنهج الذي استخدمه في ذلك هو الذي اوضح قصور المناهج التي استخدمها السابقون عليه الذين حاولوا فهم قوايين التطور وفقا للقوايين الميكانيكية او على انها او « فيزيقا اجتماعية » او « فيسيولوجيا اجتماعية » .

ومن هنا فهو يرفض فكرة ان قوايين الحياة الاقتصادية تعتبر واحدة بالنسبة للماضي والحاضر ، وان ما كتبه ماركس في مقدمة « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » يؤكد ذلك . فكل نسق من علاقات الانتاج يعتبر بناء اجتماعيا له صفات نوعية الى جانب تلك السمات المشتركة بين كافة التكوينات .

وتطبيق منهج ماركس ليس سوى معيار يرى انه المعيار الموضوعي الذي يمكن ان نفهم به ما هو اساس في الشبكة المعقدة للحياة الاجتماعية . ومن هنا تظهر اهمية ان يمتد هذا المنهج الى دراسة التكوينات الاجتماعية الاخرى . فالنظرية المادية « لا تدعى تفسير كل شيء وانما تشير فقط الى المنهج العلمي الوحيد » فيدراسة المجتمع .

(2) العلاقة بين المادية والجدلية والمادية التاريخية - مدخل لقوايين التطور :

تعرضنا من قبل الى محاولة عزل المادية التاريخية عن المادية الجدلية . والحق ان هذه المحاولات يرجع مصدرها الى موجة مراجعة الماركسية في اواخر القرن الماضي .

وكان ممثلو هذه الموجة هم كاوتسكي وبرنشتاين . والغريب ان البعض بوتومور (2) على سبيل المثال - لا يزال يعتمد على مؤلفات كاوتسكي خاصة في فهم المادية التاريخية . وكاوتسكي يقول في صراحة ان « المفهوم المادي للتاريخ لا يرتبط بالفلسفة المادية » (3) .

ويرد جلزerman على هذا القول مستندا الى انجلز ولينين بأن هناك علاقة لا تنفصل بين المادية الجدلية والمادية التاريخية . فالتاريخية تدرك الوجود الاجتماعي مستقلا عن الوعي الاجتماعي . غير ان هذا الرأي حول القضية السوسيولوجية التي شغلت العلماء والمفكرين طويلا لا يعني ان المادية التاريخية ليست الا مجرد تطبيق لمقولات الجدلية على المجتمع دون اعتبار للطبيعة النوعية للوجود الاجتماعي .

فعندما تتخذ المادية التاريخية العلاقات الاجتماعية المحسدة

كموضوع للبحث ، فانها في حقيقة الامر تدرس ايضا الناس الذين تشكل هذه العلاقات نتيجة لنشاطهم . فمن طريق اظهار جدلية العملية التاريخية واهوار تباين الجوهر الاجتماعي للانسان المتمثل في العمل الانتاجي تستطيع المادية التاريخية ان تظهر الطابع النسوي لمقولاتها رغم ذلك الارتباط بالمادة الجدلية .

مقولات المادية التاريخية - قوايين التطور :

1 - يتمثل القانون الاول في الدور الحاسم الذي يلعبه اسلوب الانتاج في تشكيل البناء الفوقي للمجتمع . فاسلوب الانتاج هو الذي ينهض عليه بناء المجتمع : سماته ، وافكاره ومؤسسانه . ويتشكل اسلوبا لانتاج من مظهرين : القوى المنتجة وعلاقات الانتاج .

وتتكون قوى الانتاج من الناس العاملين وما يستحذون من خيرة في العمل . كما ان علاقات الانتاج تتحدد وفقا للشكل الذي تتخذه ملكية وسائل الانتاج ووضع الفئات والطبقات في عملية الانتاج ذاتها . ان كل نوع من القوى الانتاجية لعلاقات انتاجية تتطابق معه . فالقوى الانتاجية هي العنصر الحاسم في اسلوب الانتاج . فهي اكثر العناصر حركة وتغيرا . وعندما تتطور يحدث صدام مععلاقات الانتاج التي قد تعوق تطور القوى المنتجة . وينتهي هذا الصراع بان تحل علاقات انتاجية جديدة تتطابق وتتوافق مع القوى الانتاجية التي نمت وتطورت . وعلى سبيل المثال فان « وسائل الانتاج والتبادل التي قامت البرجوازية على اساسها ، بزغت داخل المجتمع الاقطاعي ، وحينما بلغت مرحلة معينة من التطور لم تعد الظروف التي كان المجتمع الاقطاعي ينتج ويبادل في ظلها ، لم يعد التنظيم الاقطاعي للزراعة وصناعة الورش ، وفي كلمة واحدة لم يعد النظام الاقطاعي للملكية يتفق مع القوى الانتاجية التي تطورت بالفعل ، بل تحول الى قيود تعوقها واصبح الواجب تحطيم هذه القيود ، وقد تحطمت بالفعل . و« ظهرت مكانها المنافسة الحرة ونظام اجتماعي وسياسي يتوافق معها وكذلك السيطرة الاقتصادية والسياسية لطبقة البرجوازية » (4) .

غير ان هذه العملية لا تحدث بشكل ميكانيكي . وان كلمات ماركس في مقدمة « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » تؤكد هذا المعنى . فاذا كان التغير في القوى الانتاجية يحدث بطريقة يمكن ملاحظتها بوضوح ودقة فان تغير البناء المصاحب لها يمر بتعرجات ويسير في خط حلزوني وقد يصادف فيه لحظات انتكاس .

وحسب رأى لابريولا Labriola استاذ الاجتماع الايطالي فان الدور الحاسم للهيكل الاقتصادي (5) ليس عملية ميكانيكية ينبثق عنها البناء الفوقي من مؤسسات وقوايين وايدولوجية . فهناك عملية معقدة ، بل وقد تتسم احيانا بالتعرجات التي لا تدرك بسهولة ، وعندما يعرف لابريولا علم الاجتماع بانه علم الوظائف والتفسيرات الاجتماعية فانه يضع مساهمة ماركس في هذا الميدان الجديد للمعرفة كسلسلة من الاكتشافات التي ستمكن الانسان من ان يصبح سيده مصيره .

ان فكرة البناء الفوقي القائم على نوع معين من اسلوب الانتاج قد ابعدت فكرة ان الانظمة الاجتماعية خالدة وابدية . فكل اسلوب انتاج - وهو يقوم على شكل معين من اشكال الملكية - لا يمكن ان يكون سوى مرحلة تاريخية . والانظمة الاجتماعية المصاحبة لذلك الاسلوب ليست الا انظمة تاريخية مؤقتة .

(4) Marx and Engels, Manifesto of the Communist Party Peking, 1965, P. 37

(5) Bottomore, OP - Cit, P. 51.

(1) Ibid, P. 145.

(2) Bottomore, op - Cit.

(3) Gezerman, Op - Cit, P. 8

وبهذا المعنى يوجه ماركس وانجلز حديثهما الى البرجوازيين
قائلين :

« ان مفهوماتكم المفرضة تدفعكم الى اعتبار العلاقات الاجتماعية المتولدة عن أسلوبكم في الإنتاج وعلاقات الملكية - هذه العلاقات اداريخية التي يمحوها سير الإنتاج ذاته - قوانين طبيعية وعقلية. لم تنفردوا بهذه المفهومات فقد تمسك بها من قبل كل الطبقات التي حكمت من قبلكم . ان ما تقرونه بوضوح فيما يتعلق بالملكية الاقطاعية ليس في استطاعتكم ان تقبلوه بالنسبة للملكية البرجوازية»(1).

لقد كانت الافكار التي وضعتها الماركسية حول هذه القضية تطورا لافكار المفكرين الاجتماعيين السابقين عليهما . وقد اكد لينين هذه القضية في مطلع كتابه « مصادر الماركسية » . فان تيري ومينييه وجيزو المؤرخين الفرنسيين قد اشاروا الى علاقات الملكية كاساس لنظام اجتماعي . وجاء سان سيمون والقي الضوء لاول مرة على تاريخ هذه العلاقات في أوروبا الحديثة ، بل وسار الى ابعد من هذا وسأل نفسه : لماذا تلعب هذه العلاقات بالتحديد وليس غيرها ، مثل هذا الدور الهام . وهو يرى ضرورة البحث عن اجابة لذلك في متطلبات التطور الصناعي . وقد يبدو ان التطور المنطقي لهذه الآراء لا بد ان يؤدي بسان سيهون الى استخلاص ان قوانين الإنتاج هي القوانين التي تحدد التطور الاجتماعي . والحق ان سان سيهون قد اقترب في بعض الاحيان من هذه الفكرة ، ولكن في بعض الاحيان فحسب .

لقد كان لهذا القانسون الذي اكتشفه ماركس تأثير هام على الفكر السوسيولوجي، خاصة من زاوية منهج الدراسة في علم الاجتماع. ونجد البعض بقدر أهمية هذا الاكتشاف بقوله :

« ان اليزة العظيمة لماركس تتمثل في انه وضع تميزا في مجال الظواهر الاجتماعية بين اساس فعال وبناء فوقي يندبذ بين رمزية ووعي مطابق . بنفس المعنى - وماركس يقول هذا صراحة حيث يضطر علم النفس ان يضع تميزا بين السلوك الفعلي والوعي. وعلاقة البناء الفوقي باساسه المادي هي نفس علاقة وعسي الفرد وسلوكه » (2) .

ان الوضع الاقتصادي - عند ماركس - هو الاساس وهو يتأثر بدوره بالبناء الفوقي . ولكننا نجد بعض المؤلفات في علم الاجتماع في مصر تردد ان ماركس جعل العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد. ومن امثلة هذا الرأي :

« اعتبر ماركس ان الاقتصاد هو العامل الوحيد الموجه لتاريخ البشرية ولكن اذا كانت العوامل الاقتصادية تلعب دورا هاما في الاحداث التاريخيه بل قد توجهها فصلا ، الا انه من الغلابة ان نهمل سائر العوامل الاخرى من سياسية واجتماعية وادبية . ويمكن ان نضرب لذلك مثلا بالحروب الدينية التي تزيها العواطف الدينية والتي لا تبت بصلة الى الاقتصاد » (3) .

ونعتقد ان هناك فرقا كبيرا بين اعتبار اسلوب الإنتاج كاساس للحياة الاجتماعية وبين النظر اليه على انه العامل الوحيد .

وثانيا ، فان افكار ماركس لم تضع العامل الاقتصادي على انه العامل الوحيد الذي لا يتأثر باي شيء ولا يشاركه اي عامل اخر في دفع عملية التطور .

ونعتقد ايضا ان ماركس قد اوضح في اعماله مسدى تأثير العوامل غير الاقتصادية ، بل انه استخدم امثلة في كتاب (الثامن

عشر من برومير) تشابه ، بل تكاد تطابق ، مثال الحروب الدينية الذي يقدمه الانتقاد الذي عرضناه آنفا .

والاكثر أهمية من ذلك هو ان الماركسية وضعت صياغة محددة واضحة للدور الذي يمكن ان يلعبه الوعي الاجتماعي في التطور فان ماركس يقول ، « ان النظرية ذاتها تتحول الى قوة مادية حين تنغلغل في الجماهير » .

كما اننا نجد بعض علماء الاجتماع يقرون ان الماركسية تضع أهمية للدور الفعال للافكار في التطور ولكنهم يستخدمون هذه الحقيقة في توجيه النقد الى المادية التاريخية .

فكارل موش ، عالم الاجتماع الألماني ، يقول ان القرار الدور الفعال للافكار في التطور يتعارض مع الفكرة الاساسية للمادية التاريخية التي تقول ان الافكار تعتمد على الوعي . فاقصرار التفاعل (4) بين الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي يجعل الماركسية في الواقع توافيا للمثالية خصمها للود مع بقاء مجرد « ظل بسيط » من الاختلاف يتمثل في ان الماركسية ترجع العوامل الفكرية لاسباب اقتصادية .

ويعلق جازرمان على رأي كارل موش قائلا انه يرد على نفسه . فهذا « الظل البسيط » هو الشيء الاساسي .

(ب) نظرية الصراع الطبقي :

نبهت الصدمات التي تنشأ بين الافراد في المجتمع المفكرين الى هذه الظاهرة . ولكن احدا قبل ماركس لم يضع صياغة واضحة ومحددة لفكرة الطبقات الاجتماعية . فهو يقول : « ان تاريخ كل المجتمعات التي وجدت حتى الان هو تاريخ الصراع الطبقي (واضاف انجلز : باستثناء تاريخ المجتمعات البدائية)

« فالاحرار والعبيد ، النبلاء والعامه ، السيد الاقطاعي والقرن، صاحب العرقه والصانع الاجير ، وباختصار المستغنون والمستغلون كانوا في تعارض دائم ، وكان بينهم صراع مستمر ، احيانا بشكل ظاهر واخرى بشكل مستمر ، صراع ينتهي دائما اما باعادة بناء المجتمع بأكمله على اساس توري واما بانهيار الطبقتين المتصارعتين معا » (5) .

ويوضح ماركس وانجلز ايضا انه يوجد داخل كل طبقة من هذه الطبقات مراتب ودرجات مختلفة .

عندما وضع ماركس هذه النظرية ، استند الى عملية تنظيم الإنتاج وتقسيم العمل . فالوضع الذي يشهله المرء في عملية الإنتاج هو بمثابة الدليل على الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها . غير ان ماركس يقول ان وجود الطبقة الاجتماعية يستلزم ايضا ان تعي الطبقة ذاتها .

ولقد كانت النظرية الماركسية عن الطبقات الاجتماعية من الناحية الاولى اسهاما في تفكيرنا (6) . فقد كان لها تأثير لا يعد على النظرية السوسيولوجية حتى وان لم يعترف البعض بهذا صراحة .

اولا - نجدها تقوم بتعميم تصرفات الافراد بارجاعها الى تصرفات الجماعات . فهي توضح ان الاختلاف في اوضاع الطبقات التي ينقسم اليها المجتمع هو مصدر الاماني المتصارعة بين الناس .

وثانيا - انها تحدد مفهوم الجماعة الاجتماعية باسلوب مادي اي انها تقدم معيارا للتمييز بين الجماعات الاجتماعية . فالظواهر الدينية والانتوجرافية والسياسية والقانونية وما الى ذلك يمكن ان

(1) نقل جازرمان هذا الرأي في كتابه « قوانين التطور الاجتماعي » ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(5) Marx and Engels, The Manifesto, P. 31

(6) جوزيف شومبيتر ، الراسمالية ، والاشتراكية والديموقراطية ج ١ ص ٢٨

(1) Marx and Engels OP - Cit, PP. 52 - 53

(2) Bottomore, OP - Cit, P. 63

(3) عبد الحميد لطفى ، علم الاجتماع مؤسسة الثقافة الجامعية ، اسكندرية ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

تستخدم كمقياس للتمييز بين الجماعات ، ولكنها تميزت عشوائية غير دقيقة . غير ان نظرية الصراع الطبقي تقدم معيارا اخر يختزل نفس هذه الظواهر الى اصولها . فانقسام المجتمع الى طبقات يحدده الوضع الذي تشغله تلك الجماعات في عملية الانتاج .

وثالثا - تضع افكارا واضحة للطريقة التي يجري بها التطور وتبين ان صراع الاضداد اي الطبقات المتصارعة يعتبر دافعا اساسا للتطور الاجتماعي ، فما تاريخ المجتمع سوى تاريخ صراع الطبقات . ويقول شومبيتر « ويعني هذا القول الوصول بالادعاء الى اقصى الذرى ، ولكن حتى لو شئنا الهبوط به الى حد مجرد الفرضية القائلة بان الاحداث التاريخية يمكن تفسيرها في الغالب على صعيد المصالح الطبقيّة والمواقف الطبقيّة ، وان البنيات الطبقيّة القائمة هي دائما عوامل مهمة في التفسير التاريخي ، فان ما يتبقى منها يظل كافيا لدفعنا الى الحديث عنه كمفهوم نادر لا يقدر بثمن ولا يقل اهمية عن مفهوم التفسير الاقتصادي للتاريخ نفسه » (1) .

ولكن هذه النظرية ليست الا احدى مقولات المفهوم المادي للتاريخ اي من القوانين التي اكتشفها المادية التاريخية ، لذا يمكن اعتبار نظرية الصراع الطبقي من مكونات المنهج الجدلي في علم الاجتماع . ويقول لينين وهو يتفقد علم الاجتماع عند جماعة الناردونيك الروس ان السيد استروف ، على حق تماما حينما يقول ان نظرية الصراع الطبقي تتوج السعي العام لعلم الاجتماع لارجاع العناصر الفردية الى اصول اجتماعية (2) كما ان هذه النظرية توضح كيف يحل نظام اجتماعي محل اخر نتيجة لذلك الصراع .

وتتخذ هذه العملية شكل الثورة الاجتماعية التي تفصل مرحلة من التطور عن مرحلة اخرى . وتبين نظرية الثورات الاجتماعية وهي من قوانين المادية التاريخية ان التكوينات الاجتماعية لا تتطور عن طريق تغيرات تطويرية فحسب ، وانما ايضا عن طريق تغيرات ثورية تحول بشكل اساسي مجرى تطور المجتمع .

٣ - منهج البحث :

تستهدف المادية التاريخية معرفة القوانين التي تحكم المجال الذي تدرسه ، اي قوانين حركة المجتمع وتطوره وما يحكم التفاعل بين الظواهر الاجتماعية . وقد قدمت مبادئ منهجية عامة الى جانب القوانين التي اكتشفتها نتيجة الدراسات الواقعية .

وهي تضع ، كما جاء في التعريف الذي وضعه جازرمان ، صياغة لمنهج البحث . صياغة تضمن استخدام تلك المبادئ المنهجية والقوانين التي توصلت اليها .

ان منهج البحث هذا يقوم على الاسس التالية :

- ١ - تعريف للقانون الذي يحكم الظواهر .
- ٢ - متطلبات المنطق الجدلي في دراسة اية قضية .
- ٣ - العلاقة بين المبادئ المنهجية واساليب جمع البيانات .

اولا - ما هي صفات القانون الذي يحكم الظواهر ؟

اذا كانت المادية التاريخية تقول انها قد قدمت للعالم الاجتماعي اكتشافات تعتبرها بمثابة القوانين التي تحكم التطور الاجتماعي ، فان الماركسية تضع فهما وصياغة محددة حول ما تنطبق عليه صفة القانون .

والصفات المشتركة لكل قانون هي كما يلي :

١ - ان اي قانون لا بد وان يعكس الروابط الجوهرية بين الظواهر ، فهناك عدد لا نهائي من الروابط في الحياة . بعضها اساسي والاخر ثانوي . ولاكتشاف القانون لا بد ان نصل الى جوهر الظواهر

ونكتشف عن الروابط الاساسية . وحسب كلمات لينين فان القانون هو « علاقة ، علاقة بين جوهر الاشياء » .

ب - لا يعبر القانون عن علاقة فردية وانما علاقة كلية ، وكما اوضح انجلز في كتاب « جدل الطبيعة » فان القانون هو احد اشكال الشمول ، ولاكتشافه علينا معرفة ما هو عام فيها هو فسردى وخاص .

ج - يعبر القانون عن علاقة ضرورية . ولمعرفته علينا ان نستبعد الروابط العرضية .

د - انه يعبر عن علاقة ثابتة مستقرة بين الظواهر ومع ان الطبيعة والمجتمع في تغير مستمر الا ان هناك علاقة محددة ثابتة نسبيا . وقد قال لينين في « الدفانر الفلسفية » ان القانون هو الشيء الثابت والدائم بين الظواهر » .

ومن هذه السمات يمكن ان نستخلص صفتين اساسيتين لاي قانون :

اولا - ان القانون او العلاقة ليست ثابتة بشكل مطلق . بل تعتبر تاريخية بشكل معين حيث لا توجد الا اذا ظلت الظروف كما هي . فقوانين البيولوجيا مثلا لم تظهر الا مع ظهور الحياة . وقوانين المجتمع الافطاعي في بلد معين تزول من المجتمع مع انهيار ذلك النظام . كما لم تظهر قوانين الرأسمالية الا مع ظهورها في مرحلة تاريخية معينة .

وثانيا - وفي نفس الوقت يعتبر القانون مطلقا ودائما في حالة استمرار الظروف التي يعمل في ظلها كما هي .

لقد كان لهذا الفهم لطبيعة سمات القانون ، خاصة صفته النسبية التاريخية ، اثره في الحكم على عدم جدوى فكرة القوانين الطبيعية الخالدة التي حاول بعض رواد علم الاجتماع ان يفسروا بها تطور المجتمع .

ثانيا - متطلبات المنطق الجدلي في البحث

اناء الدراسة والبحث نستخدم عادة التجريد والتصنيف . ومعنى ذلك اننا نفضل الموضوعات ونرتبها لتمييزها . ولكن علينا ان نتذكر دائما ان الموضوعات التي عزلناها لا توجد منفصلة . فان لها روابطها بالمجال الاجتماعي الذي توجه فيه . كما انها في حالة تغير . لذا علينا ان نتذكر دائما ان المبادئ التي اتبعناها في التصنيف قد تحتاج الى مراجعة اذا حدث تغير في الظروف .

ويقول لينين ان المنطق الجدلي يتطلب منا عند دراسة اية قضية يجب ان نراعي المسائل التالية (٣) :

- ١ - لكي نحصل على معرفة حقيقية باحد الموضوعات يجب ان نستوعب وندرس كل جوانبه ، كل روابطه ومجاليه واذا كنا لن نحقق ذلك بشكل كامل فان مراعاته تجنبنا الخطأ وعدم التعسف .
- ٢ - علينا ان نتناول الموضوع في تطوره ، في حركته الذاتية وتفسيره .
- ٣ - ان التجربة الانسانية في مجموعها يجب ان تدون وتصاغ في تعريف كامل للموضوع يكون بمثابة مؤشر عملي .

٤ - انه وفقا للمنطق الجدلي - كما قال انجلز - ليس هنالك حقيقة مجردة وانما الحقيقة عينية Concrete فالروح الخلاقة للماركسية هي التحليل العيني لظروف عينية

ثالثا - العلاقة بين المبادئ المنهجية والاساليب

تتمثل المبادئ المنهجية التي تستخدم في البحوث الاجتماعية

٣ - نقل عن :

Cornforth , Science Versus Idealism , Lawrence and Wishart , London - 1955 . PP . 327 - 328 .

١ - المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٩ .

2 - Lenin, Collected Works, VI, P. 410.

والسيوسولوجية في القوانين العامة للمادية التاريخية اما الاساليب فانها تتميز بسمة تطبيقية اساسية . فهي تتعلق بطرق الحصول على المعطيات الواقعية واساليب معالجتها .

وترتبط المبادئ المنهجية والاساليب ببعضها . فان على الاساليب ان تضمن استخدام المبادئ المنهجية في البحث العملي وفي عملية التعميم . وعلى سبيل المثال ، فانه اذا كان الاحصاء والاساليب الرياضية المخلفة لها اهمية في البحوث السوسولوجية فان علم الاجتماع لا يمكن اخزاله الى الاحصاء مثلا . فالاحصاء - منله مثل اي اسلوب اخر - ليس الا وسيلة يستخدمها علم الاجتماع .

ان اكداس المواد الخام لا قيمة لها ان لم تعالج وفقا لمبادئ منهجية عامة يتم على اساسها اجراء التعميمات في البحوث الاجتماعية .

ان هذا المرشد النظري هو الذي يسمح بان ننظر الى المجتمع في مجموعة ، ومعرفة اشكال التفاعل والتاثير المتبادل بين مختلف الظواهر . لان تجميع المواد الخام او حتى البحوث السوسولوجية التي تدرس مشاكل الحياة اليومية لا يمكن ان تكون هي علم الاجتماع .

فدراسة مشاكل الاسرة او التربية او المواصلات لن يكون في احسن الاحوال الا دراسات للتخطيط الاجتماعي .

ومن هنا تنبع اهمية مبادئ المادية التاريخية لسؤال هذه القضايا في مجموعها . فعلم الاجتماع لا يجب ان يتخلى عن دوره كعلم يدرس المجتمع في مجموعه ، في حركته وتطوره ، ويستهدف اكتشاف قوانين حركة المجتمع . ومن ثم يكون قادرا على التنبؤ بالمسار العام لهذه الحركة .

واناء اجراء التعميمات يجب ان تتم معرفة الكيفية التي تعمل بها القوانين السوسولوجية (اي قوانين المادية التاريخية) . ان نم معرفة كيفية عمل هذه القوانين في العمليات العينية وبسل واسهداف اكتشاف اية قوانين جديدة في المجالات الاجتماعية .

ان دراسة اي عملية اجتماعية لا تبين مجرد تطابقها مع قوانين المادية بل ان الشيء الاساسي هو انها تبين الانماط التي تعمل بها هذه القوانين في ظل الظروف المعينة (1) . لذلك هناك حاجة دائمة الى الاستفادة من البحوث الاجتماعية لاجراء تعميمات نظرية جديدة تفني المنهج الجدلي وتزيده نراء .

فان ما يميز الماركسية (2) كما يقول زيدا نوف في مؤلفه « حول تاريخ الفلسفة » - عن كل الفلسفات السابقة هو انها ليست علما يسود العلوم الاخرى ، وانما هي منهج ينظر الى العلوم الطبيعية والاجتماعية ، منهج يعني نفسه بالنجاحات التي تحرزها العلوم في مجرى تطورها .

ان المفهوم الذي وضعته الماركسية حول العلاقة بين النظرية والتطبيق يعني ان على البحوث الاجتماعية ان تسترشد بالنظرية العامة للمادية التاريخية ومبادئها . ثم عليها بتطورها ان تخرج من دراسة المجتمع بما يضيف الى هذه النظرية ويغنيها .

Ibid , P , 228

- 1

Ibid . P. 227

- 2

المراجع

(اولا) مراجع باللغة العربية :

- 1 - ارمان كوفيليه ، مقدمة في علم الاجتماع ، ترجمة السيد محمد بنوي وعباس احمد الشربيني ، دار المعارف .
- 2 - انجلز « التفسير الاشتراكي للتاريخ » ترجمة راشد البرازي

النهضة العربية ، 1968 .

3 - حسن شحانه سعفان ، اسس علم الاجتماع ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1959 .

4 - جوزيف شومبيتر ، الراسمالية والاشراكية والديموقراطية (الجزء الاول) تعريب خيرى حماد ، الدار القومية للطباعة والنشر .

5 - صلاح مخيبر وعبيد ميخائيل رزق ، في الاشتراكية العربية (ماركس يدخل الماركسية) الدار القومية للطباعة والنشر .

6 - عبدالباسط محمد حسن واخرون ، اسس علم الاجتماع ، مطبعة البيان العربي .

7 - عبدالحميد لطفي ، علم الاجتماع ، مؤسسه النعاه الطبيعية اسكندرية .

8 - كارل ماركس ، الثامن عشر من برومير - لويس برنابرت ، دار التقدم موسكو .

9 - محمد فحي الشنيطي ، الفلسفة الماركسية (اصولها الايديولوجية وتطبيقاتها الاجتماعية) ، دار المعرفة ، القاهرة ، 1958 .

(ب) المراجع الاجنبية :

1 - Blekhanov . The Development of Monist view of History , Moscow , 1956 .

2 - Bottomore and Maximilien (eds) , KARL MARX, Selected Writting in Sociology and Social Philosophy, (Rubel , Belican Book) 1963 .

3 - Cornforth . Science Versus Idealism , Lawrance and Wiskart , London , 1955 .

4 - Engles , Anti-Duhring , Moscow . 1955 .

5 - Engles , Dialectics of Nature , Progress Publishers , Mosców , 1966 .

6 - Lenin , Collected Works , V . I . Foreign Languages. Publishing House . Moscow , 1962 .

7 - Lenin , Collected Works . V . 14 , Foreign Publishing House , Moscow , 1962 .

8 - Lenin , The Three Sources and the Three Component Parts of Marxism , Foreign Languages Publishing House , Moscow .

9 - Glezerman , The Laws of Social Development , Foreign Languages Publishing House , Moscow .

10 - Gurvitch , Traite de Sociologie , Tome Premier , Press Univer - sitaires de France , Paris , 1962 .

11 - Maciver and Page , Society , Macmillan and Co. L T D . London , 1950 .

12 - Marx , and Engels , The German Ideology , Progress Publishers , Moscow , 1964 .

13 - Marx and Engels , The Manifesto of th Communist Party , Foreign Languages Press , Peking , 1965 .

14 - Marx and Engels , Selected Works , V . I , Moscow , 1956 .

15 - Marx . The Poverty of Philosophy , Prgress Publishers , Moscow , 1966 .